الحركة الجوهرية ونظرية الزمان في فلسفة الشيرازي

الدكتور جعفر آل ياسين
استاذ الفلسفة وعلم الاخلاق
المساعد بكلية الآداب جامعة بغداد

ينظر الشيرازي للحركة ـ بادىء ذى بدء وكأنها التجدد والانقضاء لذا يجب ان تكون علتها القريبة امرا غير ثابت الذات والالم تنعدم اجزاء الحركة فتعود سكونا غير متجدد • والفاعل لها المباشر ليس عقلا محضا ، فان كانت النفس هي المحركة فيكون ذلك اما من حيث كونها في جسم ، او من حيث تعلقها به • والحركة اما طبيعية أو قسرية أو ارادية ، فان كانت الاولى فظاهر ان فاعلتها هي الطبيعة ، وكذلك ان كانت قسرية لان القاسر علة معدة للحركة وليس فاعلا لها والا لزالت مع زواله ، وان كانت ارادية فمصدرها النفس ولكنها ليست الفاعلة القريبة لها ، بل انها لاتفعل الا من جهة كونها طبيعية او مستخدمة اياها • ونحن نشعر بالوجدان ان المميل للجسم مثلا والصارف له من مكان الى مكان او من حال الى حال لايكون الا قوة قائمة به وهى المسماة بالطبيعة •• فلهذا المبدأ القريب للحركة اذن قوة جوهرية قائمة بالجسم اذ الكيفيات والاعراض كلها تابعة للصور المقومة وهى الطبيعة ، ولذا عرفها بعضهم انها « مبدأ اول لحركة ماهي فيه وسكون بالذات لا بالعرض » وقد برهنوا ايضا على ان كل ما يقبل الميل من خارج فلابد وان يكون فيه مبدأ ميل طبعى ، فثبت لديهم ان ممارس الحركة مطلقا لا يكون الا طبيعة • وقد مر ان مباشر الحركة لابد وان يكون امرا متجددا ، فالجوهر الصورى (او مايسمى بالطبيعة بالمعنى العام) لايخلو منه جسم من الاجسام لكونه (اى الجسم) غير خال من حركة او سكون • والساكن من شأنه الحركة ايضا ولو لم يكن متجددا لم يمكن صدور الحركة عنه لاستحالة صدور المتجدد عن ثابت • والفلاسفة كالشيخ الرئيس يعترفون ان الطبيعة من جهة الثبات لاتكون علة الحركة الا انهم قالوا لابد من لحوق التغيرلها من الخارج كتجدد مراتب القرب والبعد من الغاية المطلوبة في الحركات الطبيعية ، وكتجدد احوال اخرى في الحركات القسرية ، وكتجدد الارادات المنبعثه عن النفس على حسب تجدد

احوال الدواعي الباعثه للحركة • وما ذكره الشيخ الرئيس واتباعه يرجع كله في النهاية الى الطبيعة ، خاصة وقد علمنا ان القاسر لابد له وان ينتهى اليها ، وكذلك علمنا ان النفس لاتكون مبدأ الحركة الا باستخدام من الطبيعة ، فالتجدد منته « اليها ومعلول لها • ولمعترض ان يقول ان الحكماء اثبتوا في النهاية ان لكل حركة سلسلتين احداهما اصل الحركة والاخرى سلسلة منتظمة من احوال متواردة • والاعتراض بحد ذاته لايصح لان الكلام هنا في العلة الموجبة للحركة (اي الطبيعة) لا في العلة المعدة لها (اى النفس) • ولابد لكل معلول من علة مقتضية ففرض السلسلتين (اى سلسة اصل الحركة وسلسلة انتظامها) يساعدنا نوعا ما على وجود امور مخصصة لاجزاء الحركة بان يقال ان الطبيعة بانضمام كل حال من حالات القرب والبعد او غيرهما علة لقطع هذا القرب والبعد خاصة وان الحركة سابقة عليهما بالزمان وهى ايضا سابقة على الحال الاخرى التى تخصصت بتلك الحركة فتكون كل منها معدة للاخرى وليست مقتضية •• اذ لو كانت مقتضية للزم تقدم الشيء على نفسه ولا مخلص عن هذا الا الاذعان بان الطبيعة (جوهر سيال) نشأت حقيقته المتجددة بين مادة من شأنها القوة والزوال ، وفاعل محض من شأنه الافاضة والاكمال ، فلا يزال ينبعث عنه امر وينعدم في القابل ثم يجبره الفاعل بايراد البدل على الاتصال • ولسائل ان يسأل هنا فيقول : اذا كان وجود كل متجدد مسبوقا بوجود متجدد آخر علة لتجدده فالكلام عائد في تجدد علته ، وهكذا حتى يؤدى اما الى التسلسل او التغير في ذات الله ؟ •• ومجمل مانعتقد في رد هذا القول : ان التجدد للشيء ان لم يكن صفة ذاتية له ففى تجدده يحتاج الى مجدد فان كان صفة ذاتية فلا حاجة به الى ذلك الا اللهم الحاجة الى فاعل يجعل تلك الصفة متجددة ، اذ الذاتيات لاتعلل • ولاشك ان في الوجود شيئا حقيقته التجدد وهو مانعته بالطبيعة وما يسميه الفلاسفة الاخرون بالزمان والحركة •• ولكل شيء ثبات او فعلية ما ، والفائض عن الفاعل الحق هو « ثبات » ذلك الشيء و «فعليته» ، فثباته هو ثبات تجدده وفعليته هي فعلية قوته ، كالهيولى الاولى • فتجدد الطبيعة هو عين ثباتها كما ان قوة الهيولى هي عين فعليتها • والطبيعة بما هى ثابته مرتبطة الى الحق الاول ، وبما هي متجددة يرتبط اليها تجدد المحدثات • على ان الهيولى بما لها من الفعلية صدرت عن المبدأ الفعال على سبيل الابداع ، وبما هي قوة وامكان استعدادى يصح لها الحدوث والانقضاء والفناء • فهذان الجوهران بدثورهما وتجددهما واسطتان في الحدوث والزوال وبهما يحصل الارتباط بين القديم والحادث من الزمان •

ولقد سبق لنا ان عرفنا الحركة بانها خروج الشيء من القوة الى الفعل تدريجيا وهذا هوبعينه معنى نسبي والامورالنسبية والاضافية تجددها وثباتها تابعان لتجدد مانسبت اليه سيما اذا كان مفهومهما عين الانقضاء • والتجدد هنا : تجدد شيء ، وشيء متجدد في ذاته ، فالاول هو الحركة ، والثانى هو المتحرك في ذاتـــه ••فالخروج التجددى من القوة الى الفعل هو معنى نفس الحركة ووجودها في الذهن بحسب الخارج • واما ما به الخروج منها اليه (اي الى الفعل)فهى الطبيعة • واما الشيء القابل للخروج فهي المادة • واما المخرج فهو جوهر فلكي • واما قدر الخروج فهو الزمان فان حقيقته ليست الا مقدار التجدد والانقضاء ليس غير وخلاصة ما تقدم ان كل جوهر له طبيعة متجددة وله ايضا امر ثابت مستمر نسبته اليه نسبة الروح الى الجسد ، فان الروح الانسانى لتجرده باق وطبيعة البدن ابدا في التجدد والسيلان • وانما هو متجدد الذات الباقية بورود الامثال كقول الله في كتابه الكريم (بل هم في لبس من خلق جديد) • وكـــذلك الصـــور الطبيعية فانها متجددة من حيث وجودها المادي والوضعي والزماني ، فلها كون مندرج متبدل غير مســـتقر الذات من حيث وجودها العقلي • اما صورتها فباقية ازلا وابدا في علم الله لاستحالة ان يزول شيء من الاشياء عن علمه او تيغير علمه • فالوجود الواحد المســـتمر هو بعينه الوجود المتصل المتغير وهو بعينه ايضـــا من ابعاضه ، فله وحدة سارية في الاعداد لانها وحدة جامعة ، فان قلنا انه واحد صدقنا ، وان قلنا انه متعدد صدقنا ، وان قلنا انه باق من اول الاستحاله الى آخرها صدقنا وان قلنا انه حادث في كل حين صدقنا ، وان قلنا انه بتمامه موجود صـــدقنا ايضا •!•

ويناقش الشيرازى هنا موقف الشيخ الرئيس بالذات حيث يعتقد ابن سينا انه «لو وقعت حركة فيالجوهر او اشتداد اوتضعف او ازديا فاما ان يبقى نوعه فلا تتغيرصورته الجوهرية في ذاتها ، واما تتغير في عارض فتكون استحالة لا تكونا •• فان كان الجوهر لا يبقى مع الاشتداد فكان هذاالاشتداد قد احدث جواهر جـــديدة متعاقبة غير متناهية بالفعل ، وهذا محال في متقولة الجوهر •• »يعقب الشيرازى على رأي الشيخالرئيس فيرى ان فيه تحكما ومغالطة مأتاهما الخلط بين الماهية والوجود، والاشتباه بين اخذ مابالقوة مكان ما بالفعل • فقول ابن سينا « اما انيبقى نوعه في الاشتداد •• »اذا اراد به وجودنوعه فنؤكد له انه باق لان الوجود المتصل التدريجى امر واحد زمانى والاشتداد كمال في ذلك الوجود والنقص بخلافه • واذا اراد به المعنى النوعى

المنتزع من وجوده فنرد بانه غير باق على تلك الصفة •ولا يلزم عنه حدوث جوهر جديد بل يلزم حدوث صفة ذاتيه له بالقوة من جهة كماله الوجودى او ضعفه، ولا يلزم ايضا وجود انواع بلا نهايـة بالفعل ،بل يلزم وجود واحـد متصل له حدود مفروضة بالذهن غير متناهية بالقوة • ولا فرق بين التجدد الجوهرى المسمى بالتكوين وبين الاشتداد الكيفى المسمى بالاستحاله لكونها جمعيا استكمالا تدريجيا نحو وجود الشيء سواء آكانت هذه الحركة في الجوهر او الكيف • فدعوى الفرق بينهما غير ملزمه مادام الاصل في كل شيء هو وجوده والماهية تابعة له وليس لها ثبات او استقرار • فلكل صورة طبيعية حدان : (آ) تشخص مستمر هو روح حقيقتها (ب) و تشخص متبدل هو انحاء مقوماتها ، وبهذا لا نرى ما يناقض القول بحركة الجوهر حركة ذاتية وتجدده تجددا آنيا •

الزمـــان

ان المرشد لنا الى حقيقة الزمان هو مشاهدة اختلاف الحركات واتفاقها في الأخذ والترك في المقطوع من المسافة حيث يدلنا ذلك على ان للوجود كونا مقداريا تتفاوت الحركات فيه تفاوتا غيرها في مقدار الاجسام ونهاياتها لان الاول غير ثابت والثانية ثابته فهو اذن مقدار هذا الامر غير القار • هذا بالنسبه الى الفلاسفة الطبيعيين ، اما على سبيل الفلاسفة الالهيين فان كل حادث بعد شيء له (قبلية) لا تجتمع مع (البعدية) وليست هى كقبلية الواحد على الكثير او قبلية الاب على الابن مما يجوز فيه الاجتماع للمتقدم على المتآخر ، بل هي قبلية لا تجامع البعيد بذاته ولهذا فـلا بد له (اى الزمان)من تجدد قبليات وبعديات من هويات متصـرمه بالذات على نعت الاتصال لمحاذاته الحركات الواقعة في المسافات المتنعة الانقسام الى مالاينقسم اصلا •فهو بقبوله الزيادة والنقصان مع اتصاله غير المستقر اما ان يكون كمية متصلة غير قارة او ذا كمية متصلة غير قارة ايضا • وعلى الفرضين فهو اما جوهر او عرض ، فان كان جوهرا فلاشتماله على الحدوث التجددى لايمكن ان يكون مفارقا للمادة والاستعداد ، فهو اما مقدار جوهر مادى غير ثابت الذات او هو مقدار تجدد هذا الجوهروعدم قراره ، لذا فيكون اما مقدار حركة اوذى حركة تتقدر به من جهة اتصاله ، وتتعدد به من جهة انقسامه الذهنى الى متقدم ومتآخر • وهذا النحو من الوجود له ثبات واتصال وله تجدد وانقضاء ، فكأنه شيء بين القوة البحت وبين الفعل المحض ، فمن جهة دوامه يحتاج الى فاعل حافظ له • ومن جهة حدوثه وانقضائه يحتاج الى قابل يقبل امكانيته وقوة وجوده ، فلا

محاله ان يـكون هذا القابل جسـما او جسمانيا .. ومن جهة تملكه لوحدة اتصالية وكثرة تجددية فيجب ان يكون له فاعل واحد وقابل واحد اذ الصفة الواحدة يستحيل ان تكون الا لموصوف واحد من فاعل واحد ، ففاعله يجب ان يكون ـ اذن ـ خالص الذات من المادة والا لاحتاج في استعداده عنـد تجدد الاحوال الى حركة اخرى وزمان آخر ومادة سابقة وقابلة . اذ الزمان لا يتقدم عليه شيء (عدا الحق الاول) ،فقابله يستحيل ان يكون من جسم آخر فيسقط سبعة على سائر الاجرام وهناك ليس كذلك ، اما من جهة كونه ذا حـدوث وتجدد وانقضاء ففاعله القريب ايضا يجب ان يكون مما يلحقه التجدد على نعت الاتصال والوحدة .

يقول الشيخ الرئيس ما فحواه « ان الغرض في الحركة الفلكية ليس هو نفس الحركة بما هي هذه الحركة بل غايتها حفظ طبيعة الحركة الا انها لم يمكن حفظها فاستبقيت بالنوع ، كما لايستبقى مثلا نوع الانسان الا بالاشخاص لانه لايمكن حفظ شخص واحد لانه كائن فاسد بالضرورة ، والحركة الفلكية وان كانت متجددة فانها واحدة بالاتصال والدوام فهى على هذا الاعتبار تكون كالثابته . بالاضافة الى هذا فان طبيعة الفلك من حيث هو طبيعة الجسم يطلب الاين الطبيعى ، وبما ان الوضع الطبيعى لا أنيا فيكون النقل منه قسرا ، على ان هذه الاوضاع كلها طبيعية .. » وقول ابن سينا لا يستقيم الا بان تكون طبيعة الفلك امرا متجدد الذات ووحدة جمعية وكثرة اتصالية في الاوضاع والايون وسائر اللوازم الاخرى . ويلوح لنا من آراء الشيخ الرئيس وتابعيه ان طبيعـة الفلك اولا وبالذات هي الوضـع المطلق والاين المطلق من غير خصوصيته ، وهـذا ايضا لايسـتقيم على محك النقد فاولا لان القائلين يعتقدون ان هدف الطبيعة لايكون الا امرا متعينا شخصيا ، اذن فالطبيعة الكلية لا وجود لها ما لم تتشخص ، فالوجود يتعلق بالشخص ثم بالنوع ثم بالجنس وهكذا.. وثانيا لان الموجود في كل شيء بالذات هو الهوية الوجودية المتشخصة بنفسها اما الماهيات التى يعبر عنها بالطبائع الكلية فليس لها وجود لا في الخارج ولا في الفرض الا بتبعية الوجود . ومن هنا يحصل ان الوضع والأين هما من جملة المشخصات ولوازم الموجودات والتبدل فيها اما هو عين التبدل في نحو الوجود او لازم له وليس كما ذهب البعض من ان هذا الجرم بشخصه علة مطلقة للزمان والحركة والا لم يكن زمانيا ، ومن ثمة فكل جسم فهو زماني ويتشخص بالزمان وفاعل الشيء غير مفتقر اليه . فعلة الزمان من جهة وحدته الاتصالية يجب ان يكون نسبتها الى اجزائه المتقدمة والمتأخرة

نسبة واحدة وتفعل فعلاواحدا وتكون علة حدوثه وعلة بقائه شيئا واحدا ايضا اذ الشيء التدريجي غير القار بالذات بقاؤه عين حدوثه ..

ولقد سبق الاشارة الى ان كل جسم وكل طبيعة جسمية وكل عارض من الشكل والوضع امور سائلة زائلة اما بالذات واما بالعرض . ففاعل الزمان على الاطلاق لابد وان يكون امرا ذا اعتبارين وله وجهتان : الاولى عبارة عن وحدة عقلية ، والثانية كثرة تجددية ، فبجهة وحدته يفعل الزمان بهوتيه الاتصالية ، وبجهة تجدده ينفعل ويفعل بحسب هويات ابعاضه المخصوصة . وهذا هو بعينه نفس الفلك ، فالطبيعة العقلية له هي جهة وحدتها والجسمية جهة كثرتها وتجددها ، ولذا فنفس الجرم الاقصى هي فاعلة الزمان ومقيسته وحافظته ومحددته ، وهي ايضا محددة المكان والجهات . اذ الجرم الشخصي كما يفتقر الى الزمان والحركة في الامكان الاستعدادى والتجددى ، فكذلك يحتاج الى المكان والوضع والجهة فلا يمكن ان يتقدم عليها ، لان هذه الامور اما من مقومات الجسم او من لوازم وجوده ، ولوازم الوجود كلوازم الماهية في امتناع ان يتخلخل فعل بينهما . فالاجسام مطلقا اجسام ناقصة تحتاج الى زمان ومكان ووضع وكيف وقد علمنا فيما سلف ان فاعل هذه يجب ان يكون اصله مفارق الذات والوجود عنها ، فلا يجوز ان تكون علة الزمان زمانا قبله ، ولا علة المكان مكانا قبله ، وكذلك في الكم والوضع والكيف وغيرها ، فعلتها الاصلية لابد وان تكون قديمة ثابته الذات خارجة عن الزمان والمكان تتقدم عليهما ولا يتقدم غيرها وهي على ذلك النعت تسمى «بالحق الاول» .

ولكن كيف صدرت هذه الهويات الوجودية المتجددة المساة بشوؤن الحق الاول عن مؤثر قديم ؟ ..فان كان صدورها عن غير قابل مستعد اياها لزم ان تكون تلك الصور عقولا مفارقة ، وهذا مع استحالته يستلزم التناقض اذ التجدد ينافي التجرد والمفارقة .! وان كان صدورها عن قابل مستعد فان كان القابل حادثا يلزم ان يكون معتمدا على قابل آخر واستعداد سابق وهكذا حتى يدور ويتسلسل الى غير نهاية..! وان كان قديما وله استعداد متجدد لزم قدم المادة وتقومها بصور متعاقبة وينتهى الى الدور ايضا .! اذ كيف يصح حدوث العالم مع لزوم قدم الصور النوعية ؟ لقد عرفنا ان المادة القابلة لشيء ان كانت هيولى اولى فوحدتها جنسية ليست عددية لان معناها جوهر بالقوة ، والجوهرية لا توجب للشيء تحصلا نوعيا . وكونها بالقوة لانها عبارة عن سلب شيء عن شيء مع امكان لحوقه به . فيكفى في تحصلها لحوق صورة ما أية صورة من حيث كونها مادة حكمها حكم الهيولى الاولى . وكل صورة

تتحصل بها مادة تكون اقدم ذاتا من مادتها من جهة حقيقتها الاصلية • اما من جهة تشخصها المعين فتتحد بها المادة وتتعدد بتعددها وتتجدد بتجددها ــ وقد سبق القول ان لكل صورة حقيقه عند الله موجودة في علمه وهي بحقيقتها الفعلية لاتحتاج الى مادة واستعداد او حركة وزمان وهى واحدة بوحدتها الاتصالية ، لازمة لحقيقتها الفعلية الموجودة في علم الله • واذا نظرنا الى تكثر شئونها المتجددة الحادثة وجدنا كلا منها موجودة في وقت محتاجة الى قابل مستعد بتقدم عليها زمانا وذلك القابل من حيث كونه بالقوة لا يحتاج الى علة معينة فيكفى في حصوله وجود صورة مطلقة تكون له على كمال ما من الكمالات • ومن حيث استعداده الخاص القريب يفتقر الى صورة معينة هي جهة استعداده وقوته القريبة من الفعل ، فاذا خرج من هذه الى الفعل الذى يقابلها وجب ان تبطل صورته السابقه بلحوق صورته الجديدة لعدم امكان الاجتماع بينهما •• ومن ثمة فالصورة الطبعية هي كالزمان عند الآخرين من غير تفاوت الا ان هــذه هوية جوهرية والزمان عرض •• والحق ان الهويــة الجوهرية هي الموصوفة بما ذكرنا من التقدم والتأخر بالذات لابالزمان لان الزمان وجوده تابع لوجود مايتقدم فهو عبارة عن مقدار الطبيعة المتجددة بذاتها من جهة تقدمها وتأخرها الذاتيين • فللطبيعة (اى الصورة الجســمية الطبيعية امتدادان : احدهما تدريجى زمانى يقبل الانقسام الى متقدم ومتأخر زمانيين ، الآخر دفعى مكاني يقبل الانقسام الى متقدم ومتأخرمكانيين• ونسبة المقدار الى الامتداد كنســبة المتعين الى المبهم • فحال الزمان مع الصــورة الطبيعية ذات الامتداد الزماني كحال مقدار الجســم التعليمى مع الصورة الجرمية ذات الامتداد المكاني سواء بسواء !•

نتائج البحث :

لقد انتهينا اخيرا الى ان الطبيعية السارية في الجسم امر متبدل بالذات لا يبقى وجوده زمانيين فضلا عن ان يكون قديما بشخصه • وثبت لدينا ايضا ان حقيقة المادة لكل جسم هي القوة والامكان وليست هي واحدة بالعدد بل وحدتها جنسية مبهمة • كما ان وحدة الطبيعة المحصلة لكل جسم وحدة عددية متكثرة • وثبت ان الموجود من كل شيء هو وجود ذلك الشيء وليست للماهيات والاعيان وجودا اصلا لا في العين ولا في الذهن بحيث يصير الوجود صفة لها متقررة فيها ، بل الواقع ان حالها حال الاشباح والظلال التى تتراءى في المرايا ، او كقول الله في كتابه الكريم (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجده الله عنده ••) وكذلك انتهينا الى ان العالا

بجميع جواهره المادية والصورية والنفسية والجرمية حادث متجدد في كل حين فسماء اليوم وارض اليوم لم تكن بشخصها قبل الان وليست هي التي كانت قبل هذا الزمان .. وثبت ايضا القول الفصل في مسأله حدوث العالم حدوثا زمانيا على نعت الاتصال ...

وبهذا قدم لنا الشيرازى ركيزة عتيدة من ركائزفلسفته الوجودية القائمة على التماسك والتلاحم اللذين امتاز بهما كتابه الجليل « الاسفار الاربعة ») .

---

(١) هو محمد بن ابراهيم الملقب بالمولى صدرا ، ولد في مطلع الربع الاخير من القرن العاشر للهجرة من اب شيرازي كان يقطن فارس ومن اسرة عريقة تدعى (القوامي) تحدرت عن جدها الاعلى الذي كان يلقب (الرئيس) .. اتجه صدر الدين نحو دراسة الفلسفة منذ الصبا الباكر واشتهر بها وعد من اقطابها المبرزين ، والف فيها كتباً كثيرة اهمها واشهرها كتابه (الاسفار الاربعة) . ويعنى الشيرازي بالاسفار معنى السفر ـ بفتح الفاء ـ حيث تصور الفلسفة على مراحل ومراتب يرتفع اليها عرفانياً وعقلياً حتى يصل الى الحق الاول . وهي تنقلات ذهنية بحت لا تمت الى الحركة العضوية بصلة .

الرفـــان :

مراجع البحث :

(١ الاسفار الاربعة ـ الشيرازي حـ ١ ، ٢ . ط . طهران
(٢ الشواهد الربوبية ـ الشيرازي ط . طهران
(٣ الحكمة العرشية ـ المتن للشيرازي والشرح للشيخ احمد الاحسائي . ط . طهران
(٤ الرسائل الثمان ـ الشيرازي ، ط . طهران
(٥ الشفاء ـ لابن سينا ط طهران جـ ١ ـ ٢
(٦ النجاة ـ لابن سينا ـ ط . القاهرة
(٧ مقالات الاسلاميين ـ الاشعري ، ط . القاهرة